في زماننا

قصة بقلم سليمان فياض

فتح « يوسف » الكومودينو ، واخرج فرشاة ناعمة ، أزال بهاطبقة الغبار الرقيقة التي تكسو حذاءه ، وأعاد تلميعه بقطعة من الصوف، ووضع الفرشاة وقطعة الصوف في مكانهما من الكومودينو ، واغلقه. اتكأ بكفيه على طرف السرير . غاصتا قليلا في وبر مفرش القطيفة الاحمر المنقوش بورود بيضاء وصفراء وخضراء . دبت في مشاعره تلك اللحظة ، احساسات سعيدة . أحس بالترف والدفء والنعومة . تذكر أنه نام ليلة امس مكتئبا ، وهو يفكر فيما عاناه في نهاره . عندما التصقت به زوجته ، كان عناقه لها فاترا في روحه ، متوترا ، وعصبيا ، ولم يسترح بعده ، او يشعر بالرضا . احس بعدها برغبة ضعيفة في التقيوء . واغتاظ من نفسه بسبب هذا الاحساس ، فهو يحب رائحتها ، وكانت متعطرة لاجله . احاطها بساعده ، واسند راسه الى كتفها العاري ، استنشق عبيره . قبله ، ونام . اغمض عينيه وحاول ان ينام . امسك بخناقه كابوس جثم على صدره . انتزع نفسه من وطأته ، ونسي معالمه كلها . فتح لحظتها عينيه بقلق . حاول ان يظل مستيقظا برهة ، ليحرر ذرات جسده من هذا الكابوس ، لكنه لم يفلح . عاد من جديد ليدخل في الكابوس . ذات الكابوس الغامض المرهق . لكنه نام . نام جيدا ساعات طويلة . سئم الراديو ، وكره التليفزيون ، ولم تجد زوجته شريكا لها في مسرات الليل الصغيرة ، وكان الولد والبنت قد اغفيا ، فاوقفت « البساط السحري » وساد الظلام والصمت ، وتمددت الى جواره ، وادارت وجهها اليه ، ولفحته انفاسها الدافئة ، عالية ، ومضطربة .

وقف أمام المرآة ليطمئن عى هيئته . وجدها عى ما يرام . وراى نفسه وراء العينين والملامح موفور العافية . فكر أن النوم الوفير ترياق للبدن والروح . اعاد تمشيط شعره بفرشاة زوجته ، ثم بمشطه الابيض ، الضيق الاسنان . ورنا الى المرآة راضيا ، استدار مغادرا غرفة النوم . وجد زوجته بالصالة . أعدت له أقلامه ، ومشطه ، وحافظته ، وبطاقته العائلية ، ومفكرته الخاصة التي لم يكتب فيها شيئا . تركتها له على منضدة « السفرة » اخذ يضعها في جيوبه بعناية ودقة . سالها :

ـ خرج الولد والبنت ؟

اجابته مؤكدة ، ومبتسمة :

ـ ياه . من زمان .

سالها :

ـ شربا اللبن ؟

اجابته :

ـ عن اخره . بصعوبة .

سالها وهو يستعد للخروج :

ـ تريدين شيئا ؟

ـ الان ، فقط ،كان ينظر اليها . اجابته وهي ترفع حاجبيها بمودة مبتسمة :

ـ لا . تعال باكرا .

اجابها :

ـ أمرك . ساحاول . اذا لم يكن الاتوبيس مزدحما .

اقتربت منه منتظرة . كان يهم بالخروج . امسك بكتفيها ،بكفيه، بحنان ورقة . وقبل فمها . اوشك ان يطيل قبلته . تراجعت سعيدة ومرتعدة ، مبتسمة ، متوردة ، لامعة العينين ،قائلة :

ـ يا طماع .

ابتسم لها . ربت بكفه على خدها . فكر ان بيت الرجل حصنه وقلعته . مهربه الوحيد وشاطئه ، واحته الصحراوية ، وجزيرته المنفية . فكر انه من اجلها يعيش ويعمل ، ومن اجل ولديه . بدونهم كان سيكون كئيبا ، وضائعا ومستوحشا . يبحث عن الانس حيث لا انس ،في الشارع ، والعمل ، والمقهى . لذلك يحتمل كل شيء ويفعل كل شيء ، كل ما لا يرضاه لنفسه ، او لغيره . وهو يفتح الباب اختطف منها قبلة ، من خدها . فضحكت ، ولوحت له مودعة . قالت، واكدت قولها بعينيها :

ـ لا تتاخر .

قالها برغبة واضحة :

ـ ساعود بسرعة . بسرعة جدا .

فكر انه حين يعود ، لا يجد في روحه هذه الرغبة . فكر انه لا ينبغي ان يحدث له شيء ، حتى يكون لها وللولدين معاش طيب من بعده ، همس لنفسه : ربنا يستر . أخذ يهبط الدرج ، وسمع تكة مزلاج الباب ، وهي تدفعه برفق . فكر انها في تلك اللحظة فقط، ستبدأ في العبوس . ستحس باعمال البيت اليومية جبلا . احس بلوعة، لانه لا يجد مالا ولا وقتا ليرفه عنها . وعليه ان يسير في حياته بالحكمة .

ـ ٢ ـ

مد « شعبان » يده في جيبه العلوي ، وسل ورقتين من فئة

العشرة قروش ، واعاد الباقي الى مكانه من جيب القميص ، وشد سوسته الجاكت الاسود الى اعلى . وجلس ليفطر .امامه كوب من الشاي الثقيل المغلى ، الزائد الحلاوة ، وطبق من الفول المدمس الغارق في الزيت ، ورغيفان من الخبز الاسمر . جاءته زوجته براس بصلة. اخذها ووضعها على حافة المنضدة العارية فوق قائمها الخشبي . ودقها بقبضة يده ، فتفسخت تحت ضربته . تناولت زوجته الورقتين من امامه ، وصرخت :

ـ عشرون قرشا ؟

اجابها ببرود وسخرية :

ـ مصروف اليوم !. هه . يعجبك ؟

قالت محتجة :

ـ لا يكفي ياسي شعبان .

اجابها مؤكدا :

ـ يكفي يابنت . غدا ، وعشا .

قالت صارخة :

ـ لا تقل بنتا !

واضافت :

ـ هيه . والفطور ؟ عليك ؟

نبر ساخرا :

ـ هم . ليه ؟ مختوم على قفاي . مثل كل يوم ، يابنت ،فاهمه.

عادت تصرخ :

ـ لا تقل بنتا . هه . ترضى أن اقول لك : يا ولد ؟

صاح بها :

ـ تجعلين راسك برأسي ؟ اهه ؟ انطقي .

واضاف بقسوة :

ـ طيب . لا تزعلي يا امراة .

صرخت :

ـ لا تقل امراة . انا ام عيالك .

اجابها :

ـ طظ . تجلسين مستريحة ، بلا شغل ولا مشغلة . لا يقرفك الركاب والزحمة ، ولا صاحب التاكسي وعساكر المرور .

قالت محتدة :

ـ وماذا افعل لك ؟ انت رجل . لست وحدك الذي تشقى .

واضافت :

ـ ماذا بوسعي ان افعل ؟ كل شيء ارتفع سعره .

واضافت بحزن :

ـ حتى الكلمة الطيبة !

وصمتت لحظة ، ثم قالت بعتاب :

ـ بالليل كنت سكره . والان . اصبحت بنتا ، وامراة .

قست ملامحه في وجهها . قال :

ـ تمنّين عليّ يا بنت .

قالت في اسى :

ـ يا حسرة . بماذا أمن ؟ لا اشتغل . وليست ورائي عزبة .لكنني اذكرك فقط . واضافت مؤكدة :

ـ اريد خدمتك . وتربية عيالك . وليتني أعجب !

رق لها قلبه . اوشك ان يقول لها كلمة طيبة . خشى ان تنتهز فرصة ضعفه وتركبه . صرخ فيها :

ـ كفى عن الزن . فارقيني . دعيني اطفح اللقمة .

نظرت اليه بحقد . ذهبت الى الغرفة المجاورة . لم تقل له كلمة احتجاج مما تقوله له كل يوم . يدرك ما تفكر فيه الان . تحاسبه في هذه اللحظة ، في قرارة نفسها ، على ما يكسب . لكن ، كيف يعمل سائق تاكسي بدون سجائر ، وانفاس عامرة ، واكواب من الشاي، ولعب الورق ؟ معتوهة هذه المراة . لماذا يعيش اذن ؟ ليدور كالثور، مغمض العينين ، في الساقية ؟ تتزوج الواحدة منهن رجلا ، فتعتقد انها قد اشترته ، وصار عبداً لها . في قرارة نفسه ، يشعر انه غير عادل . فذلك هو بيته . صرخ :

ـ الله يغم صباحك . جاءتك البلاوي !

لم تجبه بكلمة من داخل غرفتها . لو اجابته لاستراح ، واعطاها ورقة اخرى . أضاف قائلا ، وهو يقفز ، ضاربا كل شي امامه ، بظهر كفه وساعده .

ـ نطفحه !

اندلق الشاي والفول ، وتدحرجت البصلة المتفسخة على البلاط، واندفع خارجا من باب البيت ، دون ان يغلقه .

ـ ٣ ـ

فتح « يسري » نافذة غرفته الخاصة ليطمئن على الجو . بهره الضوء في الثامنة صباحا .راح يملأ عينيه من صفاء يوم ربيعي مشرق. فكر ان الوقت ما يزال مبكرا ليذهب الى عمله بالجريدة . انعطف ليخرج الى الصالة ، ويرى حال بيته . شده الضوء اللامع الآسر ، المنعكس على زجاج النافذة ، من جانب العين . أحس بانه سعيد ، سعيد حقا ، بعد هربين من مواجهة نفسه في ليلة واحدة : سكرة معتدلة ، ونومة مريحة عميقة . توقف . عاد الى النافذة . رنا الى السماء الزرقاء الصافية . فكر : لا شيء اجمل من الطبيعة .حدث نفسه انه من المتع ان يكون الانسان موجودا ، مجرد وجود ، يجد ضرورات حياته ، ويعانق هذا الضوء الباهر . يستسلم له بعينيه وروحه بكل حواسه ، لا يحمل مع همومه الخاصة هموم البشر .

قرر ان يذهب الى الكازينو على النهر يستمتع بالخضرة ، والماء والوجه الحسن . ربما يجد في نفسه ، وهو على الكازينو ، رغبة في كتابة قصة . سيحاول ان يتغلب على نفسه ، في هذه الصحوة بعد فنجان من القهوة ، وحبتين من الاسبرو . تجربة اكثر من قصة كامنة في روحه . يعرفها ، تأتيه في صور ممزقة ، من قاع الصمت في داخله ، من مدينة عالية الضجيج ، ولكنه يحس بها مخنوقة، بلا روح . تنتفض للحظات في وعيه ، ثم تهمد . لا يجد في نفسه رغبة لان يكتب . يبرر لنفسه دائما ، انه لا يجد ، في تجربة منها ، التعبير الصادق الذي يريده . هجر عمله كمهندس ليكون كاتبا ، رمى الفرجار ، واحتفظ بالقلم . قالت له زوجته :

ـ انت مجنون . تضيع مستقبلك ، وتضيعنا معك .

قال لها :

ـ الهندسة فن . والكتابة فن . هندسة ايضا ، ومستقبلها عظيم. فيها أجد روحي ، وضميري ، ورسالتي . منحني الله موهبة . كيف اخنقها بيدي ؟!

نبرت ساخرة . وقالت متحدية :

ـ سنرى . انت حر . سوف تندم .

كان يظن ان بوسعه ان يكون كاتبا فقط . اضطر أن يعمل في الجريدة ، مجرد صحفي ، لا يحتاج الى اكثر من أن يكون كاتبا من الدرجة الثالثة او العاشرة . برر عمله لنفسه ، انه يجد به الفرصة لضرورات الحياة ، وللوصول الى قارئه. قال له صديق طويل اللسان ، على مقهى العبث ، والفشل ، والضياع :

ـ لقد انتهيت ، وانتهى امرك . اضعت موهبتك بنفسك. تكتب طقاطيق ، واقاصيص كالنكت . ترد على البريد ، وتثير الضجيج بمقالات المناسبات . لكن ، اين انت ؟ أين الوعود التي كانت تبشر بها قصصك الاولى ؟ وضعت راسك في الخية بيدك .

ـ لا مفر للكاتب في بلدنا من العمل ليعيش . في زماننا . انت تعرف ذلك .

ساله بحدة :

ـ لماذا هجرت اذن عملك كمهندس ؟! اهه ؟

ـ انني احاول ان انقذ ما يمكن انقاذه ، وسط عملي كصحفي. الامر نفسه كنت سأواجهه . وافعله ، مع عملي كمهندس .

ـ هذا واضح . انقذت كثيرا فعلا !!

قالها بجد بالغ . ثم انفجر ضاحكا . فابتسم الاخرون .وقالمؤكدا:

ـ كان بوسعك ان تنقذ اكثر ، في عملك الاول . هذا رأيي .

قال له :

ـ المسالة ليست في العدد . المهم المستوى ، والنوع . الكيف لا الكم .

اجابه مؤكدا :

ـ تماما . هذا ما قصدته . اسمع افضل ما كتبته وانت مهندس. الان ، انظر الى نفسك .

ثار في وجهه . هاجم شخصه . قال :

ـ هه . وماذا تفعل انت ؟ ماذا كتبت في كل حياتك ؟ قصة ؟ مجرد قصة واحدة ! وتجلس لتفتي، وانت بلا زوجة ، وبلا ولد ، وعاطل بالوراثة ؟!

في قدراته يدرك انه ينتهي ككاتب . تروغ التجارب من يده ،حتى بعد ان يسجنها بالكلمات . كل مرة يكتشف انه لم يفعل ما يريده بعد . لم ير شيئا واحدا على حقيقته . لم يفلح ، بعد ، فيالوصول الى المعنى الذي يريده . معنى الشيء كما هو ، لا كما يراه في لحظة موقوتة ، متغيرة ، هاربة . يكتشف قارئه دائما شيئا غير ما اراده . ربما اشياء عدة ، متناقضة ، لم تخطر بباله . يمتدحون مقدرته احيانا ، لكنهم يلومونه في النهاية لانه لم يعبر عن روح العصر ،عن معنى ما يحبونه ، لا ما يتخيله . يغرق نفسه في الوان من الهرب : ينام كثيرا . ياكل اكثر من طاقته . لا يكف عن الحركة ، والعلاقات الرتيبة العديدة ، والتواجد في كل اماكن الكسل ، وقتل الوقت ، والضحك الهستيري . يشرب حتى يفقد الذاكرة . يهجر البيت اياما الى اول فندق . يحس ان الكل يحسده ، يرثيه ، يتآمر عليه ، يمدح فشله ، يشوه نجاحه . يستدرجونه بالعيون ، والكلمات ،ولمسات الايدي ، فيقع في الشرك : يحسد ، ويتآمر ، ويرفع صوته ، ويجري وراء كل قرش . احترف الفن . صار كاتبا عموميا امام محكمة او ميناء . يكتب حسب الطلب ، بالمقاس ، والمواصفات . تاجر بالكلمة ، لينجح ، ليرتزق . اضاع نفسه ، ويضيع الناس معه. يستغل ثقتهم بالكلمة ، يبول في رؤوسهم بعبثه . يقول لهم ما لا يقوله لنفسه ، ما لا يبوح به لسمرائه . ينتحر ببطء . لكن . ماذا يفعل؟ ماذا بوسعه ان يفعل . سوى ان يستمرفيهذه المهزلة ، او ينتحر؟ مجنون اذا حاول ان يكون نفسه . ينتحر فعلا اذا رفع صوته .

همّ ان يضرب المرآة براسه . يعرف انه قد صار عاجزا حتى عن تنفيذ هذه الرغبة . عنة النفس اصابت جسده . عنة الجسد تدمر روحه . سال نفسه : لماذا تحيا ؟ لم تخلط بين ان تكون موجودا كحيوان ، وحيا كالانسان ، الانسان ، لم تصبح خارج البيت وحشا له انياب ومخالب ، تنساب بنعومة الثعبان ، وتنسل بلزوجة المنافق ؟ لم ؟ بحجة البيت ، والدفاع عن النفس ، وعن الحاضر والمستقبل ، هه . لم تركت عملك كمهندس اذن ؟ اية تضحية تقوم بها من اجل غايتك ككاتب ، غاية كل كاتب ؟ تبدو مهموما مع نفسك ، كئيبا في بيتك ، ضائعا بين الناس . فكر : شيء ما قد مات في روحه ، يدرك الكارثة الراهنة ، يرى مظاهرها حوله . لماذا يعبد ؟ هذه المظاهر فيه هو نفسه . يعرف سرها ، ولا يجد منها خلاصا . يجد نفسه سعيدا ، اذا استطاع ان ينقذ شيئا ، اي شيءمن مركب يغرق . قصة يكتبها كما تيسر . جنيها طائرا يمسك به قبل سواه . كلمة مجاملة يجود بها صديق ، في صحيفة ، او في لقاء بالمقهى . يجد نفسه رابحا ، اذا استطاع ان يحتفظ بوجوده حيا، مجرد وجوده ليوم واحد ، ياكل ويشرب ، ويلهو وينام ، حتى لو سحق غيره ، او اولاه ظهره . يجد نفسه آمنا اذا استسلم للتيار ،اذا لم يقل : لا ، اذا قال دائما ، للجميع : نعم .

شعر في قرارته بالتحدي . بالقدرة على تحدي الدنيا ،والبيت، وزوجته ، ونفسه ، أخذ يدس ادوات حرفته في حقيبته : الاقلام ، وعشرات من الاوراق البيضاء . جذب سوستةالحقيبة فاغلقها . فكر : اكثر من مرة يتخذ هذا القرار . يندفع بكل الرغبة . ثم لا يحدث شيء يذكر . لا ينجح ابدا في ان يكون نفسه ، ان يكون صوت الاخر الذي يريد ان يسمعه . ادمن الفشل . يشعر بنفسه عاريا بلاقناع. عاريا اكثر مما يمكن ان يراه او يعرفه اي احد ،حتى زوجته .

اندفع خارجا من غرفة نومه ، التي هي مكتبه ومكتبته . فكرفيما فيه كل يوم : ان يراقب ما يجري في نفسه ، في بيته ، فيخارجبيته، ثم يجلس الى اوراقه اخر الليل ، ليعرف ماذا يحدث ؟ لماذا يحدث ؟ وجد زوجته جالسة تتصفح مجلة نسائية تافهة . لم تذهب الىالعمل. ربما كانت تشعر بالمرض . رفعت عينيها اليه بحياد . لم تبتسم له ولو مجاملة . لم تنهض لسؤاله عن اي شيء ، او لوداعه . سالته فقط :

ـ ستخرج ؟

تعرف انه سيخرج . لماذا تسأل اذن ؟ لم يجبها . سألته مستنكرة:

ـ لماذا تثقل ملابسك ؟ الدنيا ربيع ، والجو صاف .

غاظه سؤالها . اجتهد ليظل باردا . قال :

ـ الجو متقلب . من يعرف ؟!

واضاف :

ـ مريضة ؟

ـ لا .

ـ لم تذهبي الى العمل .

ـ قرفانه !

ـ استريحي .

نبرت مبتسمة وساخرة . قالت :

ـ هه . استريح ؟ متى ستاتي بسخان ؟!

اوشك ان يسب ويلعن . لكنها عادت تقرأ . رمت قنبلتها الزمنية وتركته . ظل متوقفا عن الحركة . هذه المرأة قيده . فكر : هي الاخرى مقيدة مثله . للمرة الالف ،طبع موقفها المحايد في ذهنه . فكر انه لا وقت لديه من اجلها . عليه ان يجد نفسه اولا . اللحظة لا تكفيها الان . لا تكفي لمواجهة حياد اصم واعمى ، صنعته آلاف اللحظات الفاترة . آلاف الاهمالات . الاف الساعات التي يقضيها وحيدا بدونها ، حتى في داخل البيت . فتح الباب بغير رفق . اندفع من فراغه ، حانيا رأسه ، حتى لا تصطدم بسجافه العلوي . تذكر انه لم ير ايا من اولاده ، منذ ثلاثة ايام . اغلق الباب خلفه بشدة ،انزعج هو منها . فكر انها الان تسبه . تدرك خديعة كونه كاتبا .

ـ ٤ ـ

دقت اجراس الخطر على جانبي المزلقان . اخذ الجرسان يدقان بالتبادل على الجانبين . وفوق العمودين راحت اربع عيون حمراء ، تتبادل اضاءة الخطر ، مع حركة الجرس البندولية التي لا تراها العيون . بين الضوءين ، والدقتين ، مدى زمني موقت بجزء من الثانية ، يطرق اذن المقبل من بعدين ، فيصنع رنين منغمين ، يثقبان كيانه برتابة متوترة .

توقف « يوسف » امام المتجر . صعد حافة الرصيف ،ووقف ينتظر اشارة المرور ، لياخذ في عبور الشارع الى الرصيف الاخر ، المقابل . ثم ينعطف يسرة ، مع الرصيف ، الى محطة الاتوبيس. لحظ

انابيب البوتاجاز ملقاة على الرصيف الاخر بمواجهته . تشكل تلا من الاسطوانات . فكر ان الموت معبأ في جوفها . توقفت امامه السيارات ، في انتظار مرور مترو حلوان . واخذ المارة يعبرون الطريق من امامها . تعجب لانهم يفعلون ذلك بينما اجراس الخطر تدق . عيناه غائمتان ، شاردتان ، تريان كل شيء حوله ، ولا تعيان واحدا منها . فكر انه بعد ان يمر مترو حلوان ، قادما منها ، او من باب اللوق ، ستتوقف الدقات والضوء الاحمر ، وينفتح له المرور. فكر انه يشرد دائما سارحا مع آلاف الاشياء الكبيرة والصغيرة. لذلك يسير بنظام مرسوم . يتوقف حين يرى الضوء الاحمر ،او يسمع دقات الاجراس . لذلك يظل حيا من اجل بيته وزوجته ، وولديه في هذه المدينة الصاخبة المزدحمة . يحس كلما نزل الى الشارع، بدوار خفيف ، وطنين في اذنيه .يحس برغبة في الجلوس ،والتمدد الى جوار الحائط . لمحت عيناه عناوين الصحف السوداء والحمراء، تتحدث عن الحرب والسلم ، في وقت واحد ، كل يوم . لم يع بالتحديد ماذا تقوله كلمات العناوين .

سمع دوي المترو قادما . احس به يملأ الفراغ امامه . توقع ان يراه مقبلا من باب اللوق ، يملأ المشهد امامه ، بادئا من نقطة صغيرة مفاجئة ، مقتحما المكان بسرعة خاطفة ، داهما اللحظة كالومضة ، يخنقها في وعيه كالموت الفجائي . يسمي اهل قريته هذا الموت داء النقطة . يسميه الاطباء في هذه المدينة السكتة القلبية .على غير ما توقع ، جاء المترو من خلفه ، قادما من حلوان ، والمعادي، وماري جرجس ، ودار السلام . احس بالفجيعة في تقديره . اخذ يرقب جانب العربات ، يلحظ دويها المصم ، الممتزج بدقات الاجراس، واصوات الموتورات ، وهو يفكر ان الصوت يسبق مصدره . لذلك ظن المترو قادما من الاتجاه المعاكس . مر المترو . ابتعد سريعا واختفى . وظلت الاجراس تدق .

نظر الى ساعته : التاسعة الا خمس عشرة دقيقة . فكر :سيركب الاتوبيس ، ويصل الى عمله في باب الحديد ، فيالموعد المحدد ، ويرقب من النافذة ، قبل ان يجلس الى مكتبه ، رمسيس الحجري الخالد ، وهو يبول على وجه المدينة ، من قدميه ، ويغرقها بخير عميم .فكر ان عليه أن ينتظر مرور المترو القادم من باب اللوق ، ويرى وجهه المقتحم يسد كل شيء ، يغرقه بالعدم ، يرج كيانه بلحظة رعب عنيفة وخاطفة ، قصيرة وابدية ، ساحقة ومريحة ، شدت عيناه ، الى الجهة المقابلة . سمع الدوي خلفه . سر بفطنته الى ان الصوتيسبق مصدره ، جهد في داخله حتى لا يستسلم لاغراء الصوت المخادع .علق عينيه بالجهة المقابلة ، ليرى وجه المترو الذي لا ياتي . فكر : سيذهب الى عمله الاخر ، بعد الظهر ، من اجل مطالب البيت التي لاتنفد. مع ذلك فهو مدين . مرتبه ينمو كما كان ينمو مرتب الاباء والاجداد. والاسعار ترتفع وترتفع عاما بعد عام . آباؤه كانوا يشربون من اباريق الفخار المبردة في هواء الليل . وهو لا بد ان يشرب منالفريجيدير. وهي لا بد أن تخيط ثيابها عند احسن خياط ، كجاراتها . ما الذي يجعل ذلك ضروريا ، حتى يعمل من اجله اربع ساعات اخرى بعد الظهر؟ تخرج صديقه كمال ، زميل دراسته في الجامعة ، بتقدير مقبول ، ولم يجد عملا . طرق كل سفارات الامارات العربية . تعلق ، في النهاية، بعربة سفير . احاط الحاجزين الزجاجيين بذراعه ، وطوى عليه ساعده ، وذراعه الاخرى تمد طلبا للعمل . رجا ، وتوسل ، وبكى، ورفض ان يدع العربة . حتى اخذ منه رجل المعجزات الورقة ،والعربة سائرة بهما ، وساقاه مطويتان الى فخذيه حتى لا تأكلهما العجلات. كتب السفير على الورقة بالموافقة ، فقفز مبتعدا عن العربة ،تركها سائرة ، وراح يتدحرج ببدلته على اسفلت الطريق . اوشكت عربة قادمة ان تدهمه ، لولا ان فراملها كانت قوية . اشترى سنواته القادمة بلحظة ذل . باع سنوات تعليمه بقطعة ارض .وبيت من الطين،وزوجة لا تميز العجوة من الطوب الاحمر .

انتبه فجأة ، قبل ان يستعد ، على وجه المترو يسد الفراغامامه. ارتعد قلبه . انسد نخاعه بظلمة مفاجئة في مؤخرة رأسه . استسلم للحظة . عيناه ترقبان تتابع عربات المترو . تحسان ، في المؤخرة، بالوان السيارات الواقفة تنتظر . سجن التحسيني نفسه ، فيعاصمة النفط الصحراوية ، اثنتي عشرة سنة ، مع زوجته وولديه . اقتصد ثلاثين الف جنيه ـ هكذا حكوا ـ قال لهم انه حين يعود سيشتري كل اراضي عمه ، ويجلس على حافة الترعة ، ويدلي ساقيهفي الماء، ويمزق شهادته في الهندسة . رفض ان يتزوج ابنة العم الدميمة ، واغترب ليسحق هذا العم بماله ايضا ، كما سحقه . اركب زوجته وولديه وماله ومقتنياته المدهشة الطائرة ، وعاد الى عمله ، ليسلم ما لديه من عهدة ، ويلحق بهم في الغد . مات وهو جالس فيالسيارة، في طريقه الى المطار ، مات دون ان يدري السائق بموته الا عندما توقف . ما الذي قتله اذن ؟ فرحة نصره الخاص ؟ ام نفاد طاقته ؟ ام خوفه من فقر اخر يخبئه الزمن ؟

وعى ان المترو قد مر اللحظة . توارت خلفه اخر عرباته ، تاركة وراءها ، على الجانبين ، هزات في باطن الارض ، ودفقات منالغبار. عجب في قرارته لان الاجراس ما تزال تدق . يسمعها . لان السيارات امامه تأخذ في العبور برغم دقات الاجراس تمنى ان يواتيه الحظ ، ولو بألف لحظة ذل ، ولو بألف ميتة وميتة ، ليرفع عن كتفيه عبء البيت ، والوسط ، والمظهر . ليطمئن على مستقبل الزوجة والولد. فكر ان الكل قد اصيب بسعار المظهر ، بالرغبة في مزيد من رياش العصر وآلاته المنزلية . لم يعد في العيون سوى التحسد ، في القلب سوى الحسرة ، في حركة الايدي سوى الطمع واللهفة ،في الاصوات سوى الصراخ والسباب ، والضحكات الناعمة ، والشفاه الملتوية ، والاعناق مطوقة بالياقات المنشاة . انتبه فجأة على اتوبيسه يمر امامه ، قادما من السيدة . وعى انه كان يقف بلا مبرر . ان الطريق كان مفتوحا له ، مغلقا في وجه السيارات التي فتح لها الطريق قبل لحظات . توقفتفي اذنيه دقات الاجراس . فزع لانالوقت يمر ، ولانه سيصل الى عمله متأخرا ، وسوف يجد رئيسه بانتظاره، معقود الكفين وراء ظهره ، يمن عليه بكلمات كالخناجر :

ـ هذه المرة سماح ، في المرة الثانية يا سيد يوسف ..

اندفع عابرا الطريق . سيطر على جسده ليروغ من العربات المندفعة ، المتجاورة ، لتسبق احداها الاخرى . مرقمن امام سيارة، افلت منها بقدميه . اوشك ان يثب في قفزة الى قاعدة عمود الجرس الاخرس الاسفلتية . اقتحمته سيارة مفاجئة ، قبل ان يصل الى هدفه. طار امامها وانطرح . اصطدم راسه بحافة القاعدة الاسفلتية . دفق الفم دماء في ذات اللحظة التي ارتجت فيها السيارة بالفرامل المشدودة فجأة ، وهي تتوقف فوقه ، وتتراجع محطمة فكه الاسفل، وقاع الجمجمة .

ـ ٥ ـ

التفت كل المارة الى ضجة الحادث . توقفت السيارات وعجلاتها تزيق بشدة . ران صمت مفاجيء على الشارع لثانية . اقبل يسري مسرعا من باب العمارة ليرى ما حدث . توقف مع الاخرين حول الضحية . انفثأ الصمت فجأة بالترحم والحوقلة . غادر السائق سيارته مصفر الوجه . ناحت ابواق السيارات ، داعية بعضها للحركة. تطلب من الجمع الابتعاد عن جانب الطريق لتمر . راح الكل يقدر مدى خطأ القتيل ومسئولية السائق . صاح العامل الذي يدفع عربة الموت بساعديه ، يحمل انابيبه على كتفيه :

ـ الاسعاف يا عالم . الرجل يموت .

لم يتحرك احد . اكتفى الكل بالمصمصة والحوقلة . واصلوا مسيرتهم شرقا وغربا . عاد العامل الى عربته . اندفع اخر ليلحق بالاتوبيس . رأت الحادث خادمة من شرفة عالية . عادت بعد لحظة واسقطت ملاءة قديمة من الشرفة . جاءت سيدتها اليها واخذتتصيح في وجهها . ارجح الهواء الملاءة حتى سقطت متهاوية فوق قضبان المترو . تحرك شرطي المرور مغادرا موقفه على الجانب الاخر ، عندعمود الجرس . اخذ الملاءة وغطى بها الجسد الذي ينتفض باحتضارة الموت، في صدمة عصبية مرعدة . صاح التاجر في وجه صبي ورشة

اصــلاح السيـــارات :

ــ التليفون عطـلان .

عاد الصبي يقــول :

ــ الرجل يموت . الاسعاف .

اقبل يسري . قال للتاجر :

ــ ارنــي .

قبض التاجـر على التليفون بكفه ، واخفاه بسرعة داخل رف بمنضدة البيــع والشراء ، وهو يقول :

ــ قلت لكم : التليفون عطلان . الله يرحمه . مكتوب عليه .

وجد يسرى نفسه متبلدا ، غير قادر على ان يفعل شيئا ، بارد العقل ، وملتاع القلب . نظـر اليه بغيـر حياد ، مجرد نظرة ، وابتعد عنه . سمعه يقول لنفسه صارخـا :

ــ ماذا يريدون مني . سياخذونني في سين وجيم : ماذا رأيت ؟ كم كانت الساعـة . قل لنـا ما حدث هه . ها هو سلك التليفـون حتى تستريحـوا .

التفت يسرى نحوه . رآه يجذب فعـلا السلك من الحائط ،وهو يقــول مكمـلا :

ــ تعال لتشهد امام وكيل النيابة . تعال المحكمة . انتظـر حتـى ينـادي لـك القاضي . تأجلت الجسلة . نغلق المحـل اذن . ورزق العيــال ، مـاذا افعل فيه ؟!

وقف يسرى على افريز الرصيف يرقب ما يجري حوله . فكر :ليس بوسعه ان يفعل شيئا . يقف الشرطي ليبعـد المارة الذيـن لا يتوقفون اكثر مـن لحظـة ، لينظم المرور الذي يضطرب ، ليسب برتابة ،وبدون انفعال حقيقي ، القاتل والقتيل ، ويلعـن يومهمـا العكر . يطــل السائقــون من نوافذ سياراتهم ، وابواقهم تزعق ، لحظـة خاطفة ، ثم ينتبهــون الى الطريق . يحوقلون . يترحمون . يسب المارة السائقين واصحاب السيارات . يسب السائقون واصحاب السيارات المارة .

فكر يسري : ليس بوسعه ان يفعل شيئا . الاشيــاء تحدث خارج وعيه، وتقف دونهـا قدرته عاجزة ومشلولة . في قريته ، يكفي ان تطيــر شرارة بنار حريق ، ليسرع الكل وراءها ، يميتوا فيها الموت . يرتجفون بالنجدة في لحظـة الخطر . منذ سنوات بعيدة لـم يره النــاس فــي قريتهم . لم يذهب اليهـا منذ دهر .فكر : ربمـا لـم يعودوا ،هم الاخرون ، يكترثــون لشيء ، غير انفسهم ، وبيوتهم ،مثل هؤلاءالناس. المدينـة تصيب القريـة بعدوى ادوائها . ومـن هـو في الاسفل يقلد مـن في الاعلى . لم يحدث العكس ابدا . حدث نفسه بصوت مرتفـع، في قاع صمته : مـا الذي يحدث حولك ، لـك ، ولهم ؟ كم انــت غبـي وابكـم !!

توقفت امامه سيارة تاكسي . اطل وجه شعبان من نافذتها . فكـر انه قـد سمعه وهو يحدث نفسه . فتقدم اليه لينقذه. قال له السائق وهو يبتسـم :

ــ تاكسـي ؟

بدا لـه السائق مفتوح العينين والفم . انحنى دون ان يشعـر ليركب . فتح له السائق باب المقعـد الخلفي . لكن يسري كان قـــد مد يده ، وفتح الباب المجاور لعداد التاكسي . نظـر الى اعلى فـي لحظـة خاطفـة . رأى زوجته واقفـة ترقبه مـن الشرفـة العاليـة . انسل الى داخل العربة ، وجلس . اغلق السائق الباب الذي فتحه. مد يسري كفه وادار مفتاح العداد كانه على عجل . امسك السائقبعجلة القيـادة قائـلا :

ــ الى اين يا سيـد ؟

سيد ؟ قل : ايها العبد ! فكـر يسري متحيرا : اين يذهب ؟ انتبـه الى انه قد ركب سيارة . دهش لانه لم يجلس في مقعـدها الخلفي . حاول ان يعرف اين سيذهب . فكر في الصحيفة . جهـد ليتذكراسمها. جهـد ليتذكر عنوانها . صاح شرطي المرور بالسائق . هدده باخــذه مخالفـة . انطلق السائق بسيارته . يعرف هذه الحيرة تصيب بعض ركابه احيانا . قال يسري للسائق :

ــ سأقول لك فيمـا بعد . سر انتبنا .

ــ محسوبك شعبـــان ..

اخذ شعبان يتكلم بانفعال . وجهه تتردد التفاتاته بين يسري ، وبيـن المرآة الصغيرة ، وبيـن الطريق امامه . راح يسري ياخذ معـه ويعطي، كلامـا في كلام . يكتشف يسري انه يقول بلسانه غير ما يدور في نفسه . لم يقصـد ذلك . صاح يسري محتجا :

ــ ماذا حدث للناس ؟

ــ على رأيك . اخرهـا قطعة فطن !

ــ لكن ، هذه الايام التي نعيشها ؟ نضع في آذاننا قطنا ، على اعيننا نظارات سوداء ، ســوداء !

لمس يسري نظارته السوداء . قال له شعبان :

ــ انا اقول لك . انا مثلا ، انا وامراتي، وانا وصاحب هـــذه العربـــة .

تقافزت الى راس يسري مشاهد متناثرة . تبدو له اللحظة فقط مرعبة : لم يلتف ساعده حول زوجته منذ شهـر . وهي تقول له : لا نفس لي . هـو يقول لنفسه : بركة ياجامع . خبر في صحيفة ، يعلن موت تاسع عالم في شهر واحد . لم يزدعمر اكبر هؤلاء العلماء سنـا عـن الاربعيـن . احدهم سقط في الطريق بذات السكتة القلبية ، وحملوه الى المشرحـة . لم يعرفـوا لـه بيتا . اوشكـت جثته ان تصير مسرحـا لمشارط الطلبة . اكتشفه فقط مامور سجن ، كـان الميت قـد شرف سجنه عدة اعوام . اكتشفه بقانـون الصدفة .في البنك ،وقفت الارامل مبتهجات ، يصرفـن المعاشات ، يمضغـن اللبان ، يرتديــن الملابس الملونة ، تفوح منهـن روائح البودرة والانوثة والعطور ، برغم حداثـة العهد بالحداد . عناويـن الصحف حمراء بلون الحرب ،سوداء بلون الانتظار ، والايـام الهامـدة ..

كان شعبان مـا يزال يتكلم . يقول في النهايـة ، يسمعـه يسري، اللحظـــة ؟

ــ .. كما لو كان الناس مضربين : اضراب يعني : لا عمل . ولـو كـان هنــاك عمل فبغير رغبة . ليس هناكاخذ او عطاء . لا احــد يفهم عـن احد . انا مثـلا انا وزوجتي كمـا قلت لك ، اعرف انهـا على حق . لكنني لا استطيع ان افعل لهـا شيئـا . فقدت القدرة على السيطرة على نفسي ، اعرف الصواب مـن الخطا، والابيض منالاسود. لكـن . هل تفهمنـي ؟!

ترك يسري السائق يتحدث . طوى قبضته على حافة النافـــذة المفتوحـة . وضع ذقنه فوق هذه القبضة . حدث نفسه انه يعرف الان بالمصادفـة ايضا ، قانـون الطفو الذي اكتشفه ارشميدس في قلـب حمام . فكر : هذا الاضراب بلا صوت ! هذه الحركـة بلا حياة !هــل يجـد شجاعـة الروح ليكتب مـا يحسه الان ؟ ام يخشى ،في لحظـة الجلوس الى اوراقـه البيضاء ، ان يجرح في نفسه مؤامرة الصمت؟.. ان ينثر اصداف العرافـة ، امـام العيـون ، وفوق الرمـال ؟.. ان يقول تلـك الاشيـاء القبيحـة والمخيفة ، التي جرت العادة ، الا تكتب على الاوراق ، مع ان العين ترى ، والاذن تسمع ، والعقل يعرف ، والشفاه تهمس وتتمتم ؟

صاح بالسائق فجاة ، وعيناه تلمعــان :

ــ اذهب بي الى شارع جلال .

تخيل نفسه يهبط من السيارة ، يقف خطيبا بيـن الناس .يصيح بهم :« انقلوا ارواحكـم . اتقلوا اطفالكم » . فكر : سينظرون اليه في بلاهة . فكر : من اليسير ان تتكلم . من الممكـن ان تتكلم . مـن السهل ان تريـد . لكـن المشكلـة ،هيفي ان تفعل ما تقوله ، ان تنفذ ما ترغبـه . صاح بالسائق فجاة :

ــ لا . اسمع . عد بي الى البيت .

القاهـرة — سليمـان فيـاض